## النصّ القرآني وتجليات نزوله

جلال الأنصاري

## قراءة في كتاب: النصّ القرآني من الجملة إلى العالم

تأليف: د. وليد منير

الناشر: المعهد العالمي للفكر الإسلامي

ليس اعتباطاً أن يفتتح الوحي خطابه للنبي الأُمّي محمّد بن عبدالله (صلى الله عليه وآله) بكلمة «اقرأْ» وذلك في أوّل لحظة من لحظات اتّصاله (صلى الله عليه وآله) بالملأ الأعلى، حينما كان مستغرقاً في تأمّلاته الفكرية حول الكون والحياة والإنسان، وهو يجول ببصره في آفاق صحراء الحجاز المترامية الأطراف، حتى لتبدو وكأنّها بلا نهاية!

وليس اعتباطاً - أيضاً - أن يُشير الإنجيل إلى أهمّية الكلمة: «**في البدء كانت الكلمة**». فالفكرة والكلمة حقيقتان متلازمتان في حياة الإنسان، وهما أبرز مظهر من مظاهر إنسانيّته، وأعمق سبب من أسباب رقيّه وتطوّر حياته؛ لأنّ الحياة الإنسانية، بكلّ ما فيها من مظاهر الحضارة والمدنية والرقيّ الاجتماعي، ما هي إلا نتيجة عملية للمعرفة الإنسانية، ولقدرة الإنسان على التعلّم وانتزاع المعارف والعلوم واكتسابها. وما هذه العلوم والمعارف التي أعطت الحياة الإنسانية قيمتها وصيغتها إلا نتاج الفكر ووليدة الكلمة[١].

وقد كانت عمليات التغيير الحضاري الكبرى ومنعطفات التاريخ الأساسية، شاهداً على دور الخطاب في إحداث النقلات النوعية في مسار الأُمم والشعوب والجماعات؛ حيث يشتبك خطاب المخاطِب مع وعي المخاطَب، في حوار وجدل يشتدّ ويهدأ بحسب قوّة وفاعليّة الخطاب واستقرار وعي المخاطَب، وقناعاته، وعاداته ومألوفاته السابقة على تلقّيه للخطاب التغييري.

وإذا ما تمّ تجاوز هذه الإشكالية، فإنّ ثمّة معركة أُخرى تكون قد بدأت، وهي معركة الخطاب في جانب المعنى والمغزى والهدف، لتستمرّ حتّى يصل المعنى الذي اشتمل عليه الخطاب إلى وعي المخاطَب، ويأخذ موقعه فيه، لتبدأ مرحلة أُخرى - داخل وعي المخاطَب - يتدافع فيها القبول والرفض، والإيجاب والسلب، والسؤال والجواب؛ وأكثر ما تكون الأسئلة حول «الحجّية» لتحقيق القناعة بالمضمون الجديد، و«الشرعية» لتجاوز عقبة شرعية الموروث واستقراره، و«البدائل» التي يقدّمها الخطاب الجديد لتجاوز فكرة «الخوف من الفراغ أو المجهول أو...» ثمّ «التفوّق» في ذلك - كلّه - على المستقر، فإذا استوفى الخطاب ذلك -كلّه-، فقد استوفى مكوّناته ومقوّماته لخوض معركة يمكن كسبها على مستوى الوعي، وعلى مستوى الواقع. هذا الذي نقوله - كلّه - (والكلام للدكتور طه جابر العلواني) يمكن أن ينطبق على خطابٍ من بشر إلى بشر مثله، أمّا حين يكون الخطاب من إله الكون والإنسان والحياة، وخالق العالمين، ومرسل المرسلين، فإنّ الأمر يختلف اختلافاً كبيراً: فالخطاب هنا يصبح شيئاً آخر، ويصبح مجرّد اتّفاقه مع أشكال الخطاب البشري وصوره، وصيغه التعبيريّة وجهاً من وجوه تعاليه وإعجازه وتجاوزه، ويصير تنزّله وإنزاله إلى البشر وتنزيله إليهم شأناً ربّانيّاً و«**روحاً من أمره**» فاللفظ آنذاك يصير قدسيّاً يُتعبّد به، حتّى لو

كان حرفاً منفرداً نحو «أ، ل، م»[٢].

من هنا، كانت أكبر الأزمات الإنسانية مع ما أنزل الله من كتاب إلى البشرية ليست في رفض تلك الكتب، أو عدم الإيمان بأنّها من عند الله، فذلك أمر لا تصعب معالجته، ولكنّها تكمن في تعامل من أُنزلت إليهم معها تعاملاً بشريّاً، محكوماً بما تعارفوا عليه فيما بينهم من مألوف لسانهم، وأنّه ليس شيئاً سوى ذلك، وتجاهلهم للفرق الكبير بين اللغة حين يستعملها الإنسان للتعبير عن مكنوناته، واللغة حين يستعملها خالقه ليضمّنها نوره وهدايته لخلقه.

إنّ الجمل والعبارات ـ في هذه الحالة ـ لا تكون مجرّد جمل وعبارات، بل تصبح آيات كالشمس والقمر وسائر الآيات الإلهيّة الأُخرى، وتطوي هذه الآيات في جوانحها ما تطويه من الهداية، والنور، والمعاني والإجابات التي تتكشّف عبر العصور بتكشّف وظهور حاجات الأُمم والعصور، وأسئلة ومسائل الحياة وأزماتها، فكأنّ المعاني تتنزّل مع بروز الأزمات والمشاكل والأسئلة[٣].

## النص : دلالات ومعانٍ

ووفق هذا الفهم.. يلتحم القرآن مع الواقع، يلتحم القرآن مع الحياة؛ لأنّ التفسير يبدأ من الواقع وينتهي إلى القرآن، لا أنّه يبدأ من القرآن وينتهي بالقرآن، فتكون عملية منعزلة عن الواقع، منفصلة عن تراث التجربة البشرية، بل هذه العملية تبدأ من الواقع، وتنتهي بالقرآن بوصفه القيّم والمصدر الذي يحدّد على ضوئه الاتجاهات الربّانية بالنسبة إلى ذلك الواقع.

ومن هنا، تبقى للقرآن ـ حينئذ ـ قدرته على القيمومة دائماً، قدرته على العطاء المستجد دائماً، وقدرته على الإبداع؛ لأنّ المسألة هنا ليست مسألة تفسير لفظ، فإنّ طاقات التفسير اللغوي ليست طاقات لا متناهية، بينما القرآن دلّت الروايات على أنّه لا ينفد؛ وصرّح القرآن الكريم بأنّ كلمات الله لا تنفد. القرآن الكريم عطاء لا ينفد بينما التفسير اللغوي ينفد؛ لأنّ اللغة لها طاقات محدودة، وليس هناك تجدّد في المدلول اللغوي. ولو وجد تجدّد في المدلول اللغوي، فلا معنى لتحكيمه على القرآن، ولو وجدت لغة أُخرى بعد القرآن لا معنى لأن يفهم القرآن من خلال لغة جديدة، أو مصطلحات جديدة، أو ألفاظ تحمل مدلولات وضعيّة استهدفت بعد القرآن[٤].

هذه الحالة من عدم النفاد، تكمن في منهج التفسير الموضوعي؛ لأنّنا نستنطق القرآن، وأنّ في القرآن علم ما كان وعلم ما يأتي، ولأنّ في القرآن نظم ما بيننا، ولأنّ في القرآن ما يمكن أن نستشف منه مواقف السماء تجاه تجربة الأرض. ومن هنا، كان التفسير الموضوعي قادراً على أن يتطوّر، على أن ينمو، على أن يثري؛ لأنّ التجربة البشرية تثريه، والدرس القرآني، والتأمّل القرآني على ضوء التجربة البشرية يجعل هذا الثراء محمولاً إلى فهم إسلامي قرآني صحيح[٥].

ولا يتسنّى هذا الفهم القرآني الصحيح، فيما لو اعتمدنا منهج «الاتجاه التجزيئي» الذي يتناول المفسّر ضمن إطاره القرآن الكريم آية فآية، وفقاً لتسلسل تدوين الآيات في المصحف

الشريف. ودور المفسّر التجزيئي في التفسير على الأغلب سلبي، فهو يبدأ، أوّلاً، بتناول النص القرآني المحدّد آية مثلاً، أو مقطعاً قرآنياً، من دون أي افتراضات أو طروحات مسبقة، ويحاول أن يحدّد المدلول القرآني، على ضوء ما يسعفه به اللفظ، مع ما يُتاح له من القرائن المتّصلة والمنفصلة. وهذه العملية في طابعها العام عملية تفسير نصّ معيّن، وكأنّ دور النصّ فيها دور المتحدِّث، ودور المفسِّر هو الإصغاء والتفهّم، وهذا ما يسمّيه السيّد محمّد باقر الصدر(قدس سره) بـ «الدور السلبي»[٦].

وخلافاً لذلك المفسّر التوحيدي والموضوعي، فإنّه لا يبدأ عمله من النص، بل من واقع الحياة، يركّز نظره على موضوع من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية، ويستوعب ما أثارته تجارب الفكر الإنساني من حلول، وما طرحه التطبيق التاريخي من أسئلة، ومن نقاط فراغ ثمّ يأخذ النصّ القرآني، لا ليتّخذ من نفسه بالنسبة إلى النصّ دور المستمع والمسجِّل فحسب، بل ليطرح بين يدي النصّ موضوعاً جاهزاً مشرقاً بعدد كبير من الأفكار والمواقف البشرية، ويبدأ مع النصّ القرآني حواراً حول سؤال وجواب، المفسّر يسأل والقرآن يُجيب. المفسّر على ضوء الحصيلة التي استطاع أن يجمعها من خلال التجارب البشرية الناقصة، من خلال أعمال الخطأ والصواب التي مارسها المفكِّرون على الأرض، لابدّ وأن يكون قد جمع حصيلة ترتبط بذلك الموضوع، ثمّ ينفصل عن هذه الحصيلة؛ ليأتي ويجلس بين يدي القرآن الكريم، لا ليجلس ساكناً، ليستمع فقط، بل يجلس محاوراً، سائلاً ومستفهماً ومتدبِّراً، فيبدأ مع النصّ القرآني حواراً حول هذا الموضوع، وهو يستهدف من ذلك أن يكتشف موقف القرآن الكريم من الموضوع المطروح والنظرية التي بإمكانه أن يستلهمها من النصّ، من خلال مقارنة هذا النصّ بما استوعبه الباحث عن الموضوع من أفكار واتجاهات.

ومن هنا، كانت نتائج التفسير الموضوعي نتائج مرتبطة دائماً بتيّار التجربة البشرية؛ لأنّها تمثّل المعالم والاتجاهات القرآنية لتحديد النظرية الإسلامية بشأن موضوع من مواضيع الحياة.

ومن هنا ـ أيضاً ـ كانت عملية التفسير الموضوعي عملية حوار مع القرآن الكريم واستنطاق له، وليست مجرّد استجابة سلبية، بل استجابة فعّالة وتوظيفاً هادفاً للنصّ القرآني، في سبيل الكشف عن حقيقة من حقائق الحياة الكبرى[٧].

ولأنّ النصّ ـ ولاسيّما النصّ الديني ـ كان وما زال وسيبقى يحتل موقعاً متميّزاً في اهتمامات البشر الثقافية والفكرية والعقلية، بالإضافة إلى اهتماماتهم العملية والحياتية الأُخرى، فإنّ البشر بمختلف قوميّاتهم وأجناسهم ما انفكّوا يبتكرون المناهج، ويبتدعون المبادئ في أُصول التعامل مع النصّ، ومحاولة استيضاح دلالاته الخفيّة والجليّة.

ويقف على رأس اهتمام الناس بالنصّ اهتمامهم بتقنين القواعد لقراءة النصّ الديني والمذهبي (= العقيدي)، على أساس أنّ النصّ

الديني يتميّز بخصوصيات، ويتفرّد بمميّزات لا توجد في بقيّة النصوص غير الدينيّة، وهذا التمييز هو على أقلّ تقدير عقيدة المتديّنين في نصوصهم الدينية، وإنْ لم يكن بالضرورة عقيدة كلّ الناس.

وفي الثقافة الإسلامية نستطيع أن نعتبر، «علم أُصول الفقه» هو الحلقة الأكثر تطوّراً في محاولة فهم، واستيضاح واستكشاف دلالات، ومعاني النصّ الديني من خلال ما يقوم به علماء الأُصول (= أصول الفقه)، ولاسيّما في مباحث الألفاظ والمفاهيم من تحديد للقواعد المتّبعة في فهم الخطابات المعرفية. كما أنّه في الثقافة الغربية الحديثة والمعاصرة يمكننا أن نعتبر علوم النصّ والألسنيات، والسيمياء الحديثة أرقى العلوم التي استطاع الإنسان المتأخّر أن يبدعها من أجل التعامل مع النصّ مطلقاً بصورة منهجية وعلمية. وهذا الأمر لا يعني أنّ القارئ للنصّ يمكنه الاستغناء بشكل مطلق عن علوم أُخرى في قراءته له، حينما يلتجئ إلى هذه العلوم المذكورة؛ وذلك لأنّ النصّ قد تجتمع فيه عدّة جهات مختلفة تساهم علوم متفرّقة في استيضاح كلّ واحد منها(٨).

## اتجاهات جديدة في التعامل مع النصّ القرآني

لمّا كان القرآن الكريم كتاب المسلمين الأكبر، والمصدر الأوّل للتشريع الإسلامي، فإنّه من الطبيعي أن تتكثّف الجهود، ومنذ وقت مبكّر، في التعامل مع «النصّ القرآني» باعتباره وحياً مقدّساً مصوناً من التحريف. وهذا ما دأب عليه المشتغلون في هذا الباب، وتعارفوا عليه. بيدَ أنّ ثمّة اتجاهات جديدة في التعامل مع القرآن، ظهرت في العقد الأخير، أو قبله بقليل، يدّعي أصحابها أنّهم إنّما ينطلقون من رؤية إسلامية بحتة، هي الرؤية التي تحتكر الحقّ وحدها، وتدين كلّ ما تعارف عليه المسلمون، لا من فهم وتفسير لنصوص القرآن الكريم وحسب، بل من مكانة القرآن نفسه ومنزلته الطبيعية، ونصيبه المناسب كمصدر معرفي(٩).

وممّا يؤسف له أنّ الأبحاث الحديثة حول النصّ رغم تعدّدها وتراكمها، وتشعّب اهتماماتها وأقسامها، لم تُسهم في دفع عجلة التعامل مع النصّ بمنهجية وعلمية وموضوعية إلى الأمام، بل هي، في الواقع، زادت الأمر تعقيداً؛ بحيث أصبح استحصال مقصود معيّن من أيّ نصّ أشبه بالشيء المستحيل ومعنى ذلك: «**أن لا حقيقة كلّية حقيقيّة ساطعة يمكن القبض عليها**».

وأمّا المنهجية، والموضوعية، والعلمية وما شاكلها من ألفاظ كثيرة يدّعي أصحاب الدراسات الحديثة في علم النصّ التزامها في قراءاتهم للنصّ، فهي لا تعدو مجرّد دعاوى دون إثباتها خرط القتاد؛ إذ إنّ «**الحياد المعرفي والموضوعية العلمية من ضمن الأساطير التي روّجها الغرب، لإخفاء أبعاده الأيديولوجية وأحكامه المسبقة، وتابعناها رغبة في البحث عن الخالص والتجرّد عن الأهواء**» كما يقول حسن حنفي(١٠).

فالقرآن –عند نصر حامد أبو زيد– قد انتقل من صفته الإلهية إلى صفة بشرية

محكومة بالمكان والزمان وعوامل التاريخ منذ تلقّاه البشر محمّد (صلى الله عليه وآله) وألقاه إلى بشر مثله. ومن هنا، فلا معنى لمرجعية النصّ القرآني، بعد أن تقادم عليه الزمن، وما سلطة النصّ القرآني التي يخضع لها المتديّنون إلاّ من بنات أفهامهم القاصرة لحقيقة القرآن تلك! وإنّ أيّة محاولة للربط بين القرآن والعصر الحديث إنّما هي محاولة تلفيقية، نابعة عن قراءة مغرضة.

والقرآن عند حسن حنفي تتكامل صورته بين قطبين، يمثّل أحدهما أسباب النزول، ويمثّل الآخر الناسخ والمنسوخ، فما دام لآيات القرآن أسباب نزول، فهي آيات مرتبطة تماماً بوقائع تاريخية عاصرتها، وقد غادرت تلك الوقائع مع أهلها بفعل عامل الزمان، وبفعله أيضاً، نحن نعيش أسباب نزول جديدة تستدعي نصوصاً جديدة. وليس للوحي أن يملأ هذا الفراغ اليوم، وقد انقطع مع آخر الرسل(عليهم السلام)، فأصبحت وظيفتنا المستقاة من الوحي هي أن ننبري لصناعة النصّ الجديد لكلّ حادثة جديدة.

وسيشفع لنا في تأكيد هذا الفهم القطب الثاني المتمثّل بالنسخ في القرآن؛ إذ الحادثة الجديدة استدعت صناعة نصّ جديد ينسخ الأوّل ويلغيه.

لقد وقعت هذه القراءات جميعاً في مفارقة منهجية خطيرة؛ إذ اعتمدت الانتقائية مرّة والتعميم مرّة أُخرى، بحسب ما تقتضيه الأهداف المرسومة لها سلفاً.

من بين هذه القراءات قراءة مغايرة حاول صاحبها أن يضفي عليها صفة الشمول ليخرج منها بنظرية جديدة في المعرفة، وبمبانٍ وأحكام فقهية جديدة تنسف المذاهب الفقهية المعروفة. وكلّ ذلك مستنبطاً من القرآن نفسه بشكل مباشر، اعتماداً على اللغة وحدها. وهي القراءة التي تقدّم بها الدكتور المهندس محمد شحرور تحت عنوان: «**الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة**»، في كتاب ضخم جاوز السبعمائة صفحة[١١] أثار جدلاً واسعاً من خلال الردود العديدة.

## مقاربة جديدة .. بأدوات جديدة

ليس من العدل مع القرآن الكريم أن تظلّ البحوث المتعلّقة بدراسة «النصّ القرآني» وقفاً على المستشرقين أو تلامذة المستشرقين، ويكون موقف علماء المسلمين مجرّد ردود فعل لما يقدّمه الآخرون حول كتاب الله تعالى، كما يقول الدكتور طه جابر العلواني[١٢].

وسداً للنقص الذي تعاني منه المكتبة الإسلامية في مجالات دراسة «النصّ القرآني» من رؤية إسلامية أصيلة، تنطوي على محاولة شجاعة ورائدة للردّ على تخرّصات البعض ممّن سمحوا لأنفسهم الخوض في هذا المضمار.. انبرى الدكتور وليد منير لهذه المهمّة، مشمّراً عن ساعد الجدّ، فجاءت دراسته القيّمة: «**النصّ القرآني من الجملة إلى العالم**»، لتمثّل محاولة للفهم والتحليل والتأويل في آن. وهي محاولة تكتنفها صعوبات متعدّدة، كما اعترف بذلك المؤلّف نفسه، ولكنّها تظلّ ضرورية وملحّة في غير حالة.

لقد أعاد النصّ القرآني صوغ العقل والوجدان العربيين، وعلى أساس من أفكار هذا النصّ قامت حضارة كاملة أثّرت تأثيراً عظيماً في مجرى التاريخ الإنساني.

كان النصّ القرآني خطاباً فاعلاً استغرق بثّه ردحاً من الزمن حتّى تمّ واكتمل، وكان جمع النص من مصادره المتفرّقة وتدوينه بمثابة التحديد الأخير لبروزه الطبوغرافي بوصفه كتابةً. وهكذا انتقل النصّ المقدّس من فضائه الشفاهي إلى فضاء آخر مكتسباً دلالته الموحَّدة.

وفي مقدّمة الكتاب، يشير المؤلّف إلى قصور الدراسات التي تناولت موضوع «النصّ القرآني» عبر أدوات غير علمية، وإن تستّرت برداء العلمية! إذ يقول: «**امتلك النصّ القرآني رؤية شديدة الثراء للوجود، وطرح تصوّراً متميِّزاً لكينونة الإنسان في الزمن. ولن نجاوز الصواب عندما نقول إنّه اشتبك اشتباكاً حقيقيّاً مع الواقع التاريخي، وإنّه عارض حركة الإنسان في العالم ودخل في جدل طويل معها لكي يُغيّر فيها أو منها. كما أنّه خرج بخصائص تشكيله، على أشكال القول المعروفة، وانتزع لنفسه مكاناً خالصاً له، لذلك كلّه صار النصّ القرآني محوراً لعدد من الدراسات والأبحاث المهمّة، ولكن كثيراً من هذه الدراسات والأبحاث (قد يستوي في ذلك قديمها ومحدثها) حاول أن يُغلِّب على النصّ بُعداً واحداً من بُعْدَيه، ويشدّه نحو ذلك البُعد. وقد أفضى هذا التغليب الدائب إلى استغراق النصّ في التاريخ (أسباب النزول ومناسباته) أو استغراقه في القيم العامّة والمطلقة. ومن ثمّ فقد ضاعت، في أغلب الأحيان، فرصةُ اكتشاف العلاقة المستترة بين الوحي والوجود بمستوياتها المختلفة**»[١٣].

وتلافياً لهذا القصور المنهجي في تلك الدراسات والبحوث، طمحت محاولة الدكتور وليد منير إلى مقاربة النصّ القرآني مقاربة جديدة بأدوات جديدة، من دون أن تُسْقِطَ من حُسبانها أصالة العلاقة بين النسبي والمتعالي، بل تتوق توقها الخاصّ إلى إضاءة هذه العلاقة وإشباعها، كما ورد في مقدّمة الكتاب.

## منهجيّة تجاوزت الآخرين

لقد توفّرت للمؤلّف عدّة مستلزمات استطاع أن يوظّفها بنجاح لصالح أُطروحته التي اتّسمت بالعمق والجدّية والأصالة؛ إذ كان على اطّلاع واسع على أسرار البلاغة العربية، يوازيه اطّلاع واسع على تطوّر «العلوم اللغوية والألسنية»، وما ولّده هذا التطوّر من علوم «كالسيميوطيقيا» التي تدرس أنظمة العلامات التي يبتدعها الإنسان ليدرك بها واقعه ونفسه.

وكذلك الإضافات الكثيرة التي أضافها تطوّر الدراسات الألسنيّة إلى علم «الهرمنيوطيقا» وغيره.

كما أنّ الدكتور منير كان على إدراك تامّ لمعطيات «المادّية الجدلية»، ومنهجها في التعامل مع النصوص تأويلاً وتفسيراً، أو تفكيكاً وتركيباً. ومع ذلك، فقد استطاع بإيمانه بالوحي الإلهي، وفهمه لطبيعته أن يستوعب من ذلك ما يتّفق مع منهجه، ويتجاوز ما لا يتّفق، وأن يوظّف سائر تلك المعطيات لخدمة

كلام الله - تبارك وتعالى - وحسن فهمه، فلم يُسْتَدرَج إلى تحكيم تلك المعارف البشرية في الوحي، وبذلك استطاع تجاوز ما سقط فيه آخرون من تأويلات واستنتاجات؛ بل استطاع أن يجعل من جهده العلمي المضني هذا، عامل اتّصال مع التراث الإسلامي في البلاغة، والأصول، وعلوم القرآن، وفقه اللغة، بدلاً من أن يُحدث مع تلك العلوم كلّها قطيعة معرفيّة كما فعل كثيرون.

لقد استطاع الدكتور منير أن يتجاوز: **حنفي، وأركون، ونصر أبو زيد، ودك الباب، وشحرور، وغيرهم**، ويعالج كثيراً من إشكاليات علوم القرآن الموروثة من خلال منهج حكّم القرآن المجيد في تلك المعارف الإنسانية النسبية بدلاً من تحكيمها في القرآن الكريم -كما فعل غيره-، فخلص إلى نتائج تمثّل وصلاً لما انقطع وتوقّف من تراثنا في هذه المجالات، فجاءت آراؤه واستنتاجاته سلسة هيّنة قادرة على الوصول بيسر لتعالج قضايا كبرى بما يمكن تسميته بأسلوب «السهل الممتنع»، فعالج قضايا: «**أسباب النزول**»، و«**الناسخ والمنسوخ**»، و«**وحدة القرآن البنائية**» **ودلالاتها**، و«**التناسب**»، **وقضية «المجاز»**.

وقد كان المؤلّف الفاضل موفّقاً غاية التوفيق في بيانه «لفاعلية التغيير» في النصّ القرآني، وتوضيحه كيفية تكشّف النصّ القرآني الكريم عن معانيه عبر العصور من دون انفصال عن طبيعة اللغة التي نزل بها، ومن دون وقوع في متاهات التأويل، ودهاليز الباطنية(١٤).

تقع الدراسة في ثلاثة عشر فصلاً، إضافة إلى المقدّمة والخاتمة، تناولت المواضيع الآتية: **النصّ بوصفه خطاباً، النص والاختلاف والدلالة، التخلّص؛ بنية الاختلاف الكبرى، النصّ والعالم والإنسان، مفتتحات النصّ؛ تجاوب مواقع الدلالة، النصّ والمجاز؛ بلاغة الرؤيا، صورة اليوتوبيا؛ معراج الواقع، التناصّ؛ الأفكار المحورية وظاهرة التوازي، النصّ في الحياة؛ مفهوم الاستخلاف ووظيفة الاختلاف، النصّ في الحاضر؛ فاعلية التغيير، دينامية النصّ - تنويعات التمثّل، النصّ والتجربة الذاتية؛ دلالات مهمّة في الخبرة الإنسانية. وأخيراً: عائق الذات ومنعطف التصوّف**؛ بويطيقا (الغياب).

من خلال المواكبة الدقيقة لمحتويات الكتاب، والوقوف على طريقة تناوله الإثارات وإشكاليات التعامل مع النصّ القرآني.. تتجلّى لنا منهجيّة متميِّزة تطمح إلى مقاربة النصّ القرآني العظيم مقاربة ذات أبعاد متعدّدة، تتنوّع فيها أدوات التحليل وزوايا النظر المنهجي؛ كي تحقّق نوعاً من الاستقصاء والشمول، عن طريق التكامل المستمرّ بين اللغة والعلم والفلسفة، والحوار بينها بوصفها منظورات معرفيّة، وعبر التفاعل الدائب بين التحليل الأسلوبي والاكتناه العلمي والتأويل الفلسفي، بوصفها طرائق للفهم والشرح والتفسير، وبذا يقدّم الكتاب رؤية جديدة يعتمد فيها آليات جديدة ينتظمها نهج فكري واحد شديد التماسك، وبالغ الثراء.

تأسيساً على ذلك، يعالج الكتاب مشكلات

ذات أهمّية كبرى مثل العلاقة بين الثبات والتحوّل، وذلك من خلال موضوعات مثل : أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والوحدة البنائية للنصّ، والتناسب ودلالاته، ومفتتحات الخطاب، وتنويعات التمثّل، التي يتيحها النصّ لذاته عبر نشاط الفهم الإنساني الى غير ذلك(١٥).

## وعي المطلق .. ووعي التاريخ

ربما يُثار هنا تساؤل مشروع : كيف تسنّى للمؤلّف أن يصهر في محاولته هذه ثلاثية: الفهم / التحليل / التأويل، ويوفّق بينها؟ متخطّياً الأُطر التقليدية في التناول.. والمناهج الحديثة في المعالجة؟

في معرض تصدّيه غير المباشر لهذه الإشكالية، يؤكّد الدكتور وليد منير أنّ حركة (الفهم / التحليل / التأويل) تستند إلى نسيج معرفي يحاول التكييف بين استرفادات المنهج وخصوصية الثقافة من جهة، وبين حداثة القراءة وتراثية المقروء من جهة ثانية، كما تحاول هذه الحركة على مستوى آخر أن تقيم جسراً بين وعي المطلق ووعي التاريخ، وأن تكشف صورة التفاعل بينهما في أكثر من اتجاه، كأنّ ثمّة حواراً يتمّ الكشف عنه بأدوات متحاورة، كلّ منها يستدرك نقص الآخر ويلبّي حاجته إلى مجاوزة حدود نوعه : اللغة، والعلم، والفلسفة وهكذا.

إنّ حركة (الفهم / التحليل / التأويل) في هذا الكتاب حركة نوّاسة، تتذبذب بين مدرجات السطوح، وتكرّر انتقالاتها بين زوايا المشاهدة، مستدعية بذلك نباهة النصّ الأساس نفسه، ومستلهمة فطنته وحيويّته.

وهي في كلّ ذلك حركة فاعلة ومنفعلة، تعرض النصّ عليها، فيما تعرض نفسها على النصّ، وتحرص على تفسير الإشارات المتبادلة بين الوحدة والأجزاء، وتطمح أن تضيء العلاقة بين اللغة والأشياء.

إنّ التفكير ـ كما يقول باشلار ـ يهبنا نسيجاً حقيقيّاً للتواجد. والعقلانية تطرح نفسها ـ كما يقول أيضاً ـ في مملكة القيم التأمّلية، التي يمكن اعتبارها مملكة التفكير في قيم المعرفة. هنا قصد المؤلّف أن يفكّر، وأن يتأمّل، وأن يُوجَد، بالمعنى الذي يستطيع أن يدلّ في معنى الحياة على حياة المعنى.

لعلّنا بحاجة دائمة إلى النظر في النصّ القرآني، من حيث هو كتابُ كشفٍ عن الإمكان. إنّ إعجازه الحقيقي ـ فيما يرى المؤلّف ـ يكمن في هذه النقطة بالتحديد، وقد جاء تركيزه على تقاطعاته، تخارجاته، وتعدّد امتداداته، انطلاقاً من هذه الرؤية(١٦).

إنّ قدرة النصّ على الاستجابة لتظافر الصور والأفكار في فضاء القراءة، تنبع من طاقة استشرافه الفيّاضة لعالم الإمكان، ونفاذ بصيرته إلى ما وراء الشروط التاريخية لكل واقع محتمل؛ لذلك فمن القصور البالغ أن ننظر إلى النصّ القرآني بوصفه أيديولوجياً أو نظاماً ساكناً صارماً من التصوّرات. إنّه ـ بالأحرى ـ يقين إضاءة، أُطروحةُ علاقات وأدوار، حكمةُ تأمّل ورؤية، ودليلُ بداهة، وضمانُ تناغم واختيار.

وعلى مشارف نهاية دراسته القيّمة يثبّت الدكتور وليد منير هذه الملاحظة؛ إذ يقول: «**لا أزعم أنّني ذهبت، في هذا الكتاب، إلى آخر مدى متاح، ولكنّني مشيت خطىً، في مدى لغيري أن يمشي فيه إلى أبعد، فالمدى شاسع وغني، وليس في وسع إنسان واحد أن يقطعه إلى نهايته، أرجو فقط ألا أكون قد تعثّرت، وأن أكون قد حظيت ببعض الحصاد الذي يعوّض عناء الحرث والتقليب**»(١٧).

وفي الوقت الذي لا يفوتنا التنويه بالجهد الكبير الذي بذله المؤلّف، ونشدّ على يديه.. فإنّنا نضمّ صوتنا إلى الدكتور طه جابر العلواني، الذي قام بتقديم الكتاب، حين يقول: «**لا شك أنّ في الكتاب مجالاً للملاحظة شأن أي عمل بشري يدور حول أعظم نصّ إلهي عرفه الوجود، لكن ما يقدّمه الكتاب للدراسات اللغوية ودراسات علوم القرآن أكبر من أيّة ملاحظة يمكن أن تُثار حول بعض أطروحاته. وإذا كنّا نتّفق مع الأُستاذ المؤلّف في كثير من أُطروحاته، فذلك لا يمنعنا من الملاحظة على بعض ما ورد، خاصّة في الفصلين الأخيرين من الكتاب، وفي مواقع متناثرة منه، لكن حرصنا على أن يقوم علماء أمثال د. وليد منير بعرض هذه القضايا من منطلق الالتزام بالإسلام والإيمان بالقرآن، يجعلنا نتجاوز عن بعض الهنات الهيّنات لنترك لعلماء قادرين مجال النظر فيها ومناقشتها مع الدكتور وليد**»(١٨).

## إضاءة معرفيّة.. ليست للجميع

ثمّة ملاحظة ينبغي الإشارة إليها، وهي أنّ هذا الكتاب من الصعب أن يستفيد منه القارئ العادي، الذي يرغب في قراءة كتب تتحدّث له عن فضائل القرآن المجيد، والثواب العميم الذي أعدّه الله للذين يقرأونه. فكتابنا هذا لا يقدِّم للقارئ كثيراً في هذا الصدد.

كذلك من الصعب على طلاّب «علوم القرآن» الموروثة أو الباحثين في هذا الجانب من المعارف المتعلّقة بكتاب الله ـ تعالى ـ أن يستفيدوا منه كثيراً!! وإن كان فيه إلمام ببعض هذه العلوم. ولعلّ الذين يستطيعون الاستفادة بهذا الكتاب ثلاث طوائف من العلماء والمتخصّصين:

**الطائفة الأُولى:** علماء البلاغة واللغويات والألسنيّات والمعنيّون بفقه اللغة وفلسفتها.

**الطائفة الثانية:** علماء «أصول الفقه» الذين لهم باع طويل وعناية خاصّة بمباحث الألفاظ والمباحث التي اعتبرت مشتركة بين الكتاب والسنّة النبويّة، وآثارها في الأحكام الشرعية، وكذلك علماء «علوم القرآن» في هذه الجوانب.

**الطائفة الثالثة:** علماء الفلسفة، فالكتاب على وجازته، قد اشتمل على جملة كبيرة من القضايا الهامّة التي لن يكون سهلاً فهمها، أو معرفة أهمّية ما وصل إليه المؤلّف الفاضل فيها على غير هؤلاء(١٩).

ختاماً، ليس لنا إلاّ أن نؤكّد أنّ الكتاب يكشف عن أبعاد فريدة لم يتمّ كشفها من قبل في إعجاز النصّ القرآني، ويقدّم إضافة بارزة إلى مناهج البحث اللغوي، وعلوم القرآن. إنّه ـ باختصار شديد ـ إضاءة معرفيّة سلّطت الضوء على تخرّصات الخائضين في غمار «مفهوم النصّ» من منطلقات استشراقيّة، أو مآرب ليست بمنأى عن تلك المنطلقات.

## الهوامش

(١) لجنة التأليف في دار التوحيد، أهمّية الكلمة في الإسلام، من إصدارات دار التوحيد (سلسلة مفاهيم إسلامية) ، طهران ، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م ، ص٧ .

(٢) راجع : د . طه جابر العلواني ، في مقدمته لكتاب : النص القرآني من الجملة إلى العالم، د. وليد منير. من إصدارات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة المنهجية الإسلامية (١٤)، القاهرة ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م، تقديم أ. طه جابر العلواني. عدد الصفحات ١٩٣ من القطع الوزيري. ص : ٧ ـ ١٣ .

(٣) المرجع نفسه، ١٠ ـ ١٢ .

(٤) السيد محمّد باقر الصدر : المدرسة القرآنية، دار التعارف ، بيروت (د .ت) ، ص : ٢٢ ـ ٢٣ .

(٥) المرجع نفسه، ص ٢٣، ٢٤ .

(٦) المرجع نفسه، ص ١٩.

(٧) المرجع نفسه، ص ٢٠ ، ٢١ .

(٨) السيد كامل الهاشمي، مدخل في البحث عن إشكالية قراءة النصّ الديني، مجلّة قضايا إسلامية (قم) العدد الأوّل ، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م ، ص : ١٥٢.

(٩) صائب عبد الحميد، الإسلام والقرآن في تصوّرات معاصرة : تفسير محمد شحرور نموذجاً، ، مجلّة قضايا إسلامية (قم) ، العدد السابع ، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م ، ص :٥٦٠ .

(١٠) السيّد كامل الهاشمي ، مرجع سابق : ١٥٣ .

(١١) صائب عبد الحميد، مرجع سابق : ٥٦٠ ـ ٥٦١ .

(١٢) تُراجع مقدّمة كتاب : النص القرآني من الجملة إلى العالم، ص : ١٣ .

(١٣) المصدر نفسه، ص ١٥.

(١٤) المصدر نفسه، ص ١٢.

(١٥) المصدر نفسه، الغلاف الأخير .

(١٦) المصدر نفسه، ص ١٨٨.

(١٧) المصدر نفسه، ص ١٨٨.

(١٨) المصدر نفسه، ص ١٣.

(١٩) المصدر نفسه، ص ١١.